المقدمة

مــقــدمــة

منذ أن ظهر نبي الإسلام محمد بن عبد الله (ﷺ) في مكة وبرزت شخصيته على ساحة التاريخ الإنساني في مطلع القرن السابع الميلادي، وما زال الجدل محتدما حول هذه الشخصية، ويكاد يكون الغلو هو السمة الرئيسة في معالجة هذه الشخصية سلبا أو إيجابا.

وقد أدى التباين الشديد في النظرة إلى نبي الإسلام محمد (ﷺ) سلبا وإيجابا إلى التصادم بين وجهات النظر المختلفة فيما يتعلق بقضية "مصادر الإسلام" التي ترتبط ارتباطا جوهريا بقضية "الوحي المحمدي"[١].

فمن وجهة النظر الإسلامية، يعتقد المؤمنون برسالة محمد (ﷺ) أنه ليس للإسلام إلا مصدر وحيد أوحد، يتمثل في "الوحي الإلهي".

والقرآن عند المسلمين هو "الكتاب المقدس الذي يمثل كلام الله المنزل على نبيه محمد (ﷺ)، المعجز بلفظه، المتعبد بتلاوته، المنقول بالتواتر، المكتوب في المصاحف، من أول سورة الفاتحة إلى آخر سورة الناس"[٢].

---

[١] يستخدم الباحث في هذه الدراسة بعض التعبيرات مثل: "الوحي المحمدي" للإشارة إلى الوحي الذي يؤمن المسلمون بأنه نزل على محمد (ﷺ)، ومثل: "البعثة المحمدية" للإشارة إلى مرحلة بداية نزول الوحي على محمد (ﷺ). وليس في ذلك شبهة تأثر بالمصطلحات الاستشراقية.

ويحتاط الباحث من تسمية دين الإسلام بغير اسمه الذي ورد في القرآن: "الإسلام" (آل عمران ١٩ ، ٨٥). يقول "محمود حمدى زقزوق": إن أغلب المستشرقين مولعون بوصف الإسلام بأنه الدين المحمدي أو المذهب المحمدي أو المحمدية (Mohammedanism) نسبة إلى محمد، كما تنسب المسيحية إلى المسيح. غير أن هناك سببا آخر لاستخدام هذا الوصف لدى الكثيرين منهم، وهو إعطاء الانطباع بأن الإسلام دين بشري، من صنع محمد، وليس من عند الله. أما نسبة المسيحية إلى المسيح فلا تعطي لديهم هذا الانطباع؛ لاعتقادهم بألوهية المسيح. انظر : زقزوق (محمود حمدي) ، الإسلام في تصورات الغرب ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ط ١٩٨٧م ، ص ٢١.

[٢] أبو شهبة (محمد محمد) ، المدخل لدراسة القرآن الكريم ، دار اللواء للنشر والتوزيع ، الرياض ، ط ثالثة ١٩٨٧م ، ص ٢٠.

أما وجهة النظر الأخرى التي تمثل غير المؤمنين برسالة محمد (ﷺ) والتي يتبناها الاستشراق بصفة عامة، فترى أن الإسلام نهل من روافد متعددة، وأن محمدا (ﷺ) اقتبس تشريعاته وقصصه من المصادر اليهودية والمسيحية وغيرها؛ ولذا يجتهد المستشرقون، على اختلاف دياناتهم ومذاهبهم وتوجهاتهم الفكرية، في البحث عن تلك المصادر التي نهل منها نبي الإسلام (ﷺ)، والروافد التي أمدته بمعارفه، والوسائل التي وصلت إليه تلك المعارف من خلالها، حسب اعتقادهم.

ومن بين هؤلاء المستشرقين يهود ومسيحيون متدينون، وبينهم أيضا علمانيون وملحدون، ويبدو للوهلة الأولى أن الموقف من إنكار "الوحي المحمدي" من قِبَل طائفة من المستشرقين اليهود والمسيحيين المؤمنين بظاهرة الوحي هو في حقيقة الأمر موقف متناقض؛ إذ إن الإيمان بحدوث ظاهرة الوحي عند أنبياء بني إسرائيل تجعل من غير المقبول رفض فكرة "الوحي المحمدي"، على الأقل من الناحية النظرية، لكن المسألة بالنسبة لهؤلاء المستشرقين لا تتعلق برفض فكرة الوحي ذاتها، وإنما تتعلق برفض الإيمان بفكرة "الوحي المحمدي" على وجه الخصوص، وهذا الرفض لا يرتبط بالعلل والأسباب بقدر ما يرتبط بالمعتقدات والقناعات الشخصية، تلك المعتقدات والقناعات التي غذتها تلك الصورة المشوهة والمغلوطة، التي رسخت في الوعي الغربي عن شخصية نبي الإسلام (ﷺ)، على مدار قرون عديدة.

وقد اتسمت معظم الدراسات الاستشراقية التي تدور حول الإسلام ونبيه (ﷺ) بنزعة عدائية، هدفها الطعن والتشويه، وأدت الأكاذيب الملفقة حول الإسلام ونبيه (ﷺ) إلى تكوين صورة نمطية لا علاقة لها بالواقع، فلم يكن هدف معظم هذه الدراسات رسم صورة مجردة وموضوعية عن الإسلام ونبيه

(ﷺ)، بل كان الهدف هو محاولة رسم صورة للإسلام في أذهان المسلمين بأنه ليس إلا صورة مشوهة وضالة لليهودية والمسيحية[١].

وهذه الدراسة تبحث قضية "الروافد الثقافية لنبي الإسلام"، من وجهة نظر الاستشراق العبري.

وتجدر الإشارة إلى أن بحث هذه القضية يفترض في الأساس أن تقتصر مادة الدراسة على نصوص الحديث النبوي الشريف، الذي يمثل أقوال النبي محمد (ﷺ) من وجهة النظر الإسلامية، لكن الاستشراق العبري ينطلق من الاعتقاد بأن محمدا (ﷺ) هو مؤلف القرآن، وتركز الكتابات العبرية بشكل أساسي على المادة القرآنية، ولما كانت الدراسة تبحث قضية الروافد الثقافية لنبي الإسلام (ﷺ) في ضوء الكتابات العبرية، كان لزاما على الباحث مناقشة هذه القضية من وجهة نظر الاستشراق العبري، بصرف النظر عن وجهة النظر الإسلامية في هذا الشأن.

* * *

* عنوان الدراسة:

حملت الدراسة العنوان التالي: " الروافد الثقافية لنبي الإسلام في ضوء الكتابات العبرية للمستشرقين اليهود – دراسة تحليلية نقدية "

والعنوان ليس تقريريا، وإنما يشير إلى بحث قضية الروافد الثقافية في ضوء ما كتبه المستشرقون اليهود باللغة العبرية.

ولا يعني ذلك مبدئيا إقرار أو نفي وجود مثل هذه الروافد، فمهمة الدراسة في المقام الأول بحث هذه القضية المطروحة بحثا علميا محايدا؛ بغية الوصول إلى نتائج علمية معتبرة.

---

١ الهواري (محمد) ، القرآن الكريم في دوائر المعارف اليهودية ، بحث منشور في مجلة جامعة الملك سعود ، الرياض ، مج ١٩ ، ٢٠٠٧م ، ص ٢٩١.

وتجدر الإشارة إلى أن بعض المستشرقين كثيرا ما يستعملون هذا التعبير "نبي الإسلام"، ولا يعني ذلك لديهم الإقرار بنبوته ورسالته (ﷺ).

ويفهم من عبارة "الروافد الثقافية لنبي الإسلام" البحث في كل ما يتعلق بالتكوين الثقافي له (ﷺ)، والمصادر الثقافية التي كونت مفاهيمه تجاه البيئة المحيطة والكون والحياة بصفة عامة.

وبعيدا عن الغلو في المعتقدات الدينية، الذي سوف تتم الإشارة إليه في الفصل الأول من هذه الدراسة، فإنه ينبغي أن يوضع في الاعتبار أن محمدا (ﷺ) – بوصفه بشرا – قد ولد في بيئة عربية صحراوية، وأنه اكتسب نوعا ما من الثقافة اللغوية والتاريخية والجغرافية من بيئته: تعلم الثقافة اللغوية العربية السائدة في عصره، وعرف العادات والتقاليد، وعرف المناطق والبلاد المحيطة، وعرف شيئا ما – قليلا كان أو كثيرا – عن أهلها، واكتسب المعرفة ببعض الحرف كحرفة الرعي وحرفة التجارة، وتعلم فنون القتال وغيرها من الأمور الحياتية الأخرى.

أما عبارة "في ضوء الكتابات العبرية للمستشرقين اليهود" فهي مقيدة للإطلاق في العبارة السابقة، ومحددة للإطار الفكري الذي تدور في فلكه هذه الدراسة، ذلك الإطار المتمثل في الكتابات المتنوعة التي كتبها المستشرقون اليهود بالعبرية حول هذا الموضوع؛ بغية إيصال رسالة معينة عن الإسلام ونبيه (ﷺ) للقارئين بالعبرية.

وقد ركزت معظم هذه الكتابات على روافد الثقافة الدينية على وجه الخصوص، والثقافة اللغوية في بعض الأحيان؛ لتوصيل فكرة مفادها أن القرآن الكريم من تأليف محمد (ﷺ)، وأنه ليس إلا صدى لثقافة محمد (ﷺ) الدينية واللغوية، وأن اليهودية مثلت الرافد الأكبر الذي نهل منه محمد (ﷺ) ثقافته الدينية، حسب زعمهم.

*　　*　　*

* محتويات الدراسة:

جاءت هذه الدراسة مشتملة على مقدمة وتمهيد وثلاثة فصول وخاتمة، فضلا عن قائمة المصادر والمراجع.

وتتناول المقدمة التعريف بالدراسة وأقسامها، وأهميتها، وأهدافها، والمنهج المتبع فيها، مع الإشارة إلى أهم الصعوبات التي واجهت الباحث في هذه الدراسة.

ويتناول التمهيد موضوع منهجية المستشرقين في مجال الدراسات الإسلامية، في إشارة إلى أهم أوجه القصور المنهجي التي اعترت هذه الدراسات الاستشراقية.

فقد تبين للباحث من خلال استقراء مادة الدراسة من الكتابات العبرية المتنوعة التي يعتمد عليها البحث أن هؤلاء المستشرقين يتجاوزون المنهجية العلمية في مجال الدراسات الإسلامية؛ رغبة في الوصول إلى بعض النتائج المقررة سلفا لديهم، والتي تستند إلى معتقداتهم وقناعاتهم الشخصية أكثر من استنادها إلى الأدلة العلمية والتاريخية.

وقد تنوعت تلك الأخطاء المنهجية ما بين استخدام مناهج علمية غير مناسبة في مجال الدراسات الإسلامية، أو استخدام آليات تطبيقية معينة؛ بغية الوصول إلى نتائج محددة سلفا، أو ارتكاب بعض الأخطاء المنهجية التي تتصادم مع خصائص البحث العلمي السليم.

وقد رأى الباحث أن هذا التمهيد من شأنه أن يساعد كثيرا في إثبات عدم أهمية العديد من الآراء والأحكام غير العلمية التي ترد في ثنايا الاستشهادات المأخوذة من هذه الكتابات، ما يغني عن التوسع في الردود التفصيلية على العديد من الجزئيات التي من شأنها أن تصرف الباحث عن الموضوع الرئيس للدراسة.

ثم يأتي الفصل الأول بعنوان:

دعوى الروافد الثقافية لنبي الإسلام (ﷺ) - الجذور والتطور

يعد هذا الفصل بمثابة تأصيل للقضية موضوع الدراسة، وتتبع لتاريخ دعوى اقتباس محمد (ﷺ) من كتب اليهود والمسيحيين، منذ ظهور هذه الدعوى في مكة، وتطورها على أيدي الجدليين المسيحيين المشارقة، ثم انتقالها إلى أوربا لتترعرع في ظل العداء المسيحي للإسلام في فترة الحروب الصليبية وما بعدها، إلى أن جاء الاستشراق فألبس هذه الجدليات ثوب العلم، وطورها في مرحلة لاحقة إلى دراسات أكاديمية.

وفي هذا الفصل تتناول الدراسة الغلو في النظرة إلى مصادر المعرفة عند محمد (ﷺ)، فمن جانب نفى بعض المسلمين الاكتساب المعرفي الطبيعي عنه (ﷺ)، ورأوا كل ما يصدر عنه (ﷺ) وحيا لا اكتساب فيه، وعلى الجانب الآخر رأى غير المسلمين كل العناصر التي شكلت ثقافته ومعارفه (ﷺ) اكتسابا لا وحي فيها، ومن هنا بدأ بعضهم في البحث عن الروافد التي أمدته (ﷺ) بثقافته الدينية والتاريخية واللغوية، من وجهة نظرهم، إلى أن أصبحت قضية "الروافد الثقافية لنبي الإسلام" من القضايا المحورية في الدراسات الاستشراقية.

ثم يأتي الفصل الثاني بعنوان:

رؤية الاستشراق العبري لنبوة محمد (ﷺ)

في هذا الفصل تتناول الدراسة رؤية الاستشراق العبري لنبوة محمد (ﷺ) وشخصيته ونشأته منذ ميلاده وحتى بعثته، وتفسيرات المستشرقين اليهود لظاهرة الوحي المحمدي على أنه حالة مرضية صرعية، أو أنه نوع من الخلل في الصحة النفسية لمحمد (ﷺ).

وتركز الدراسة في هذا الفصل على افتراض بعض المستشرقين حدوث تأثيرات يهودية ومسيحية على المحيط الثقافي والمعرفي لمحمد (ﷺ)،

وتصوراتهم حول كيفية حدوث هذا التأثير المفترض؛ وذلك بهدف التشكيك في الرسالة المحمدية، وإثبات عدم نبوة محمد (ﷺ)، وبالتالي يصبح من المنطقي لديهم البحث عن الروافد التي استقى منها محمد (ﷺ) معارفه وثقافته الدينية، من وجهة نظرهم.

ثم يأتي الفصل الثالث بعنوان:

رؤية الاستشراق العبري لروافد الثقافة الدينية المحمدية

ترصد الدراسة في هذا الفصل آراء المستشرقين اليهود في الكتابات العبرية بشأن الروافد المختلفة التي تزعم هذه الكتابات أن محمدا (ﷺ) استقى منها معارفه وثقافته الدينية. وسوف يتضح من خلال الدراسة أن هذه الآراء تفتقر إلى المصداقية والموضوعية، فضلا عن افتقارها إلى الأصالة، فهي مجرد تكرار لآراء المستشرقين الغربيين، بحيث يكاد الاستشراق العبري يكون نسخة مكررة من الاستشراق الغربي، إلى الحد الذي تتكرر فيه الأمثلة ذاتها المنقولة من الدراسات الاستشراقية الغربية، دون زيادة أو نقصان.

ويلي ذلك الخاتمة التي تشتمل على تلخيص لأهم الأفكار الواردة في الدراسة، وأهم النتائج التي توصلت إليها هذه الدراسة.

* * *

* أهمية الدراسة:

تكمن أهمية الدراسة في أهمية الموضوع الذي تبحثه؛ إذ إن قيام المستشرقين اليهود بالبحث في قضية الروافد الثقافية لنبي الإسلام، ومحاولة إثبات اقتباس بعض النصوص الإسلامية من المصادر اليهودية أو غيرها هو أمر يمس جوهر الدين الإسلامي والعقيدة الإسلامية، ويقدح في أصالته ومصدره الإلهي.

* * *

* أهداف الدراسة:

تهدف الدراسة إلى عدة أمور ، منها :

١- وضع الاستشراق العبري في ميزان النقد العلمي الموضوعي؛ لاكتشاف مدى اقترابه أو ابتعاده عن المعايير العلمية الموضوعية، وذلك من خلال بحث منهجية المستشرقين في الكتابات العبرية.

٢- التأصيل لدعوى اقتباس الإسلام من الكتابات اليهودية والمسيحية، من خلال تتبع أصول هذه الدعوى، ومراحل تطورها في الكتابات الجدلية في العصر الوسيط وفي الكتابات الاستشراقية في مرحلة لاحقة، وذلك في الفصل الأول.

٣- تفنيد مزاعم الاستشراق العبري الساعية إلى نفي صحة الرسالة المحمدية، من خلال مناقشة آراء المستشرقين اليهود في الكتابات العبرية، وذلك في الفصل الثاني.

٤- تفنيد مزاعم الاستشراق العبري الساعية إلى إثبات وجود روافد للإسلام من المصادر اليهودية المختلفة ومن غيرها، وذلك من خلال مناقشة آراء المستشرقين اليهود في الكتابات العبرية، وذلك في الفصل الثالث.

* * *

* الصعوبات التي واجهت الدراسة:

واجهت الباحث في هذه الدراسة بعض الصعوبات، من أهمها:

١- ندرة المراجع العبرية التي تتناول الموضوع بشكل مباشر، لذا اضطر الباحث إلى تجميع مادة البحث من العديد من الدراسات الاستشراقية العبرية التي تحدثت عن الإسلام ونبيه (ﷺ) بصورة عامة.

٢- جاءت أقوال معظم المستشرقين في الدراسات الاستشراقية العبرية في صورة أقوال مرسلة، وجاءت معظم الروايات التي اعتمدوا عليها مفتقرة إلى التوثيق من المصادر العربية الإسلامية. الأمر الذي كلف الباحث عناء في

البحث عن هذه الروايات في المصادر العربية الإسلامية المختلفة؛ للتأكد من سلامة هذه الروايات، وقد استغرق هذا الاستقصاء وقتا وجهدا من الباحث، وبعض هذه الروايات لم يجد له الباحث أصلا في المصادر العربية الإسلامية التي أتيحت له.

٣- اتساع نطاق الدعاوى الاستشراقية لتشمل العديد من المجالات، ما أدى إلى اضطرار الباحث للقراءة في المجالات العلمية المختلفة كعلوم القرآن وعلوم الحديث وأصول الفقه والسيرة والتاريخ؛ للتمكن من الإلمام بموضوع الدراسة من كافة جوانبه قدر الإمكان.

* * *

* منهج الدراسة:

تعتمد الدراسة على منهجين أساسيين:

١- المنهج التحليلي: حيث تقوم بتحليل النصوص الاستشراقية العبرية؛ للوقوف على الأهداف الكامنة وراء تلك النصوص، ومدى تأثر كاتب النص بقناعاته الشخصية والدينية أو بآراء من سبقه من المستشرقين.

٢- المنهج النقدي: حيث تقوم الدراسة بنقد النصوص الاستشراقية العبرية نقدا علميا موضوعيا، مع الرد العلمي على ما تثيره بعض هذه النصوص من شبهات وافتراءات حول الإسلام ونبيه محمد (ﷺ).

ويعتمد الباحث في نقده ومناقشته لهذه النصوص الاستشراقية وفي رده عليها على العديد من الأساليب، من أهمها :

١- بيان ضعف بعض هذه الدعاوى الاستشراقية وعدم قيمتها؛ بسبب خروجها عن المنهج العلمي وفساد آلياتها.

٢- استخدام الأدلة النقلية، وذلك من خلال عرض الروايات التاريخية التي تتناقض مع دعاوى المستشرقين.

٣- استخدام الأدلة العقلية، وذلك من خلال بيان فساد هذه الدعاوى؛ لافتقارها إلى المنطق العقلي السليم.

وقد يضطر الباحث أحيانا إلى عرض مجموعة من أقوال المستشرقين حول قضية ما، ثم يؤخر الرد عليها حتى نهاية العرض؛ لتشابه محتوى هذه الآراء واشتراكها في الفكرة ذاتها.

وقد يلجأ الباحث في الرد على أحد المستشرقين في قضية ما إلى الاستشهاد برأي غيره من المستشرقين الذين خالفوه الرأي في هذه القضية، ولا يلزم من ذلك أن يتبنى الباحث رأي المستشرق الآخر بصورة كاملة؛ إذ قد يلجأ بعض المستشرقين إلى رفض أحد الطروح من أحد المستشرقين في قضية من القضايا، ثم ينطلق من هذا الرفض إلى طرح آخر لا يقل خطورة عن طرح سابقه.

وليس الاستشهاد برأي أحد المستشرقين في الرد على غيره في قضية ما استجداء منه أو تفضيلا لرأيه على آراء غيره من الباحثين المسلمين، لكن الباحث قد يلجأ إلى ذلك؛ ليبين أن القضية ليست محل اتفاق وإجماع بين المستشرقين أنفسهم، ودفعا لشبهة التحيز عن الباحث المسلم، كما أنه يدخل في باب "وشهد شاهد من أهلها".

ويعد اختلاف النتائج بين المستشرقين وتعارضها وتناقضها دليلا واضحا على الخلل المنهجي لديهم؛ إذ من الثابت أن المناهج العلمية تؤدي بالباحثين إلى نتائج واحدة في المجالات العلمية التطبيقية، وإلى نتائج واحدة أو متقاربة في المجالات العلمية الإنسانية النظرية، ولو أن دراسات المستشرقين كانت مبنية على مناهج علمية موضوعية لما اختلفت ولما تعارضت النتائج إلا في القليل الذي يخضع لوجهات النظر في الاجتهاد والفهم[١].

---

[١] حمدان (نذير) ، الرسول (ﷺ) في كتابات المستشرقين ، مطبوعات رابطة العالم الإسلامي ، سلسلة دعوة الحق ، (د. ت.) ، ص ١٥٤.

* وقد لاحظ الباحث أن العديد من دراسات الباحثين المسلمين التي بحثت آراء المستشرقين عن الإسلام كانت دراسات دفاعية اتسمت بالنزعة الجدلية، والقليل منها هو الذي نحا تجاه الموضوعية العلمية، وإن لم يتخلص تماما من هذه النزعة الجدلية.

ويرى الباحث أن أية دراسة من هذا النوع لا يمكن لها أن تتخلص نهائيا من هذه النزعة الجدلية، وهي نزعة تفرضها طبيعة الموضوع المدروس، لكن فرقا كبيرا بين دراسة تستخدم قواعد المنطق والاستدلال وأخرى تتخطى حدود هذا المنطق إلى ما يمكن أن يكون جدلا دينيا فحسب.

وقد حاول الباحث في هذه الدراسة البعد عن هذه النزعة الجدلية ما أمكنه ذلك، والالتزام بالحجج المنطقية في مناقشة الموضوع ما وسعه ذلك.

واستدلال الباحث ببعض آيات القرآن الكريم في هذه الدراسة لا يأتي انطلاقا من اعتبار القرآن نصا دينيا ملزما للمستشرقين الذين لا يعترفون بقدسيته وألوهيته، وإنما يأتي هذا الاستدلال انطلاقا من قبول معظم المستشرقين لدلالة القرآن على بعض الأحداث التاريخية في العصر الجاهلي وصدر الإسلام.

"إن القرآن يعد حجة مخطوطة ذات وثوق تاريخي لا يقبل الجدل عن العصر الجاهلي"[١].

* لم يكثر الباحث من الاستطراد في الردود على بعض الشبهات التي أثارتها بعض الكتابات الاستشراقية العبرية، بل أحال في كثير من الأحيان إلى الدراسات السابقة التي أسهبت في الردود على بعضها، ووجه الباحث اهتمامه الأول إلى بيان الخلل المنهجي في هذه الكتابات.

* كل ما يرد في ثنايا الاستشهادات داخل مثل هذين القوسين [ ] ، فهو من أقوال الباحث لا المستشرق.

---

١ بن نبي (مالك) ، الظاهرة القرآنية ، دار الفكر ، دمشق ، ط ٢٠٠٠م ، ص ٢٥٦.

التمـهـيد

تمهيد

تنوعت الكتابات الاستشراقية العبرية في مجال الدراسات الإسلامية، ولم ترق بعض هذه الكتابات إلى المستوى العلمي المطلوب فيما يتعلق بمنهجيتها.

"ومع ضرورة التسليم بأهمية اتباع منهج ما في أي دراسة من الدراسات، إلا أنه من الخطورة أن نعتقد بأن منهجا بعينه يصلح لدراسة الظواهر المختلفة، فقد يفيد هذا المنهج في دراسة ظاهرة محددة أو موضوع بعينه في بيئة معينة، في حين يأتي نفس المنهج بنتائج خاطئة إذا ما طبق على موضوع آخر مشابه في بيئة أخرى"[١].

وقد استخدم بعض هؤلاء المستشرقين مناهج لا تتناسب مع مجال الدراسات الإسلامية، ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل استخدم بعضهم آليات تطبيقية معينة؛ بغية الوصول إلى نتائج محددة سلفا، كما ارتكب بعضهم انتهاكات للمنهج العلمي عند دراسته للموضوعات الإسلامية.

وسوف نلقي الضوء في هذا التمهيد على المناهج التي استخدمها المستشرقون بصفة عامة في مجال الدراسات الإسلامية، مع عدم صلاحيتها للتطبيق في هذا المجال بصورتها التي استخدمت بها. كما نلقي الضوء على الآليات التطبيقية التي استخدمتها بعض الكتابات الاستشراقية العبرية؛ بغية الوصول إلى نتائج محددة مقررة سلفا في أذهان هؤلاء المستشرقين، وكذلك الأخطاء المنهجية التي وقع فيها بعض هؤلاء المستشرقين في دراساتهم، وذلك من خلال البنود التالية:

١- استخدام الاستشراق مناهج غير مناسبة لمجال الدراسات الإسلامية.
٢- الآليات التطبيقية المستخدمة في الدراسات الاستشراقية.
٣- الأخطاء المنهجية في الدراسات الاستشراقية.

---

[١] إدريس (محمد جلاء) ، الاستشراق الإسرائيلي في المصادر العبرية ، العربي للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ط ١٩٩٥م ، ص ٣٨.

وسوف يقتصر عرض الباحث في هذا التمهيد على الإطار النظري لقضية "عدم منهجية الاستشراق في الدراسات الإسلامية"، أما النماذج التطبيقية من الاستشراق العبري فسوف يتم تناولها في طيات هذه الدراسة.

* * *

أولا: استخدام الاستشراق مناهج غير مناسبة لمجال الدراسات الإسلامية:

يتميز مجال الدراسات الإسلامية بنوع من الخصوصية تستلزم الحذر من الباحث المعاصر عند تطبيق بعض المناهج العلمية عليه، ومن مظاهر هذه الخصوصية ذلك الإطار الزماني والمكاني للمجتمع الإسلامي الأول، بما يشتمل عليه هذا الإطار من خصائص حضارية خاصة للبيئة التي نشأ فيها الإسلام، الأمر الذي يحتم على الباحث عدم الانسياق وراء تطبيق خصائص حضارية لمجتمع آخر يختلف كليا أو جزئيا عن ذلك الإطار الزماني والمكاني الذي نشأ فيه المجتمع الإسلامي الأول.

ولا يصح من الناحية المنهجية أن يتم إسقاط مفاهيم عصر أو بيئة ما على عصر آخر أو بيئة أخرى، بينهما اختلاف في العادات والتقاليد والمقومات المادية والثقافية والحضارية، فما قد يكون متاحا أوميسورا أو عسيرا أو مستهجنا أو مقبولا في عصر ما، قد لا يكون كذلك في عصر آخر أو في بيئة أخرى.

ولم يستطع باحثو الإسلام، إلا في القليل النادر، تجاوز البيئة التي عاشوا فيها، أو الحيدة عن أحكامها، أو التخلص من آثارها ومعتقداتها ونظرتها للكون والحياة[1].

---

[1] الحاج (ساسي سالم) ، نقد الخطاب الاستشراقي – الظاهرة الاستشراقية وأثرها في الدراسات الإسلامية ، ج ١ ، دار المدار الإسلامي ، بيروت ، ط ٢٠٠٢م ، ص ١٦٦.

ولعل ظاهرة الوحي النبوي المحمدي من أهم مظاهر تلك الخصوصية، والتي يعد إنكارها من المسلمات التي تنطلق منها معظم الدراسات الاستشراقية.

والدارس لتاريخ الاستشراق بصفة عامة يجد أن المستشرقين قد نظروا نظرة مادية إلى الظواهر الفكرية التي يدرسونها، ومع اتساع نطاق الفلسفة الوضعية التي وضع أسسها "أوجست كونت" أصبح الباحثون يعتمدون على الدراسات العلمية المجردة لتفسير الظواهر والأفكار الإنسانية، وتم إخضاع هذه الدراسات الإنسانية إلى مناهج العلوم التجريبية، وهذه المناهج لا تؤدي عادة إلى نتائج علمية مستساغة عند تطبيقها على الدراسات الإسلامية التي يلعب الإيمان بالوحي والنبوة الدور الأكبر فيها[١].

ومن اللافت للنظر في هذا الصدد أن إنكار الوحي المحمدي لا يقتصر على فئة من الباحثين الملحدين أو من ذوي النزعة العلمانية فحسب، بل إن طائفة من الباحثين المؤمنين باليهودية والمسيحية ينطلقون في دراستهم للإسلام من نفس هذه المسلمة الرافضة للوحي المحمدي، رغم عدم إنكارهم لظاهرة الوحي، التي تمثل جزءا من معتقداتهم الدينية التي يؤمنون بها.

وقد اتخذ عدد من المستشرقين منهج الشك الديكارتي كقاعدة صلبة لتحليل التراث الإسلامي، فراحوا يتشككون في كل ما يتعلق بالإسلام من صدق الوحي ونصوص القرآن وطريقة جمعه ونسبة السُّنة النبوية إلى محمد (ﷺ) وغير ذلك، ومن الغريب ألا يطبق هؤلاء المستشرقون وأتباعهم هذا المنهج نفسه على ميراثهم الاستشراقي ليصلوا إلى التيقن من صدقه وحقيقته، ولو طبقوا منهج الشك على هذا التراث الاستشراقي ما وجدوا لهم شيئا ذا قيمة يعول عليه[٢].

---

[١] الحاج، ج ١، ص ١٦٥ – ١٦٦.

[٢] إدريس، الاستشراق الإسرائيلي في المصادر العبرية، ص ٤٥.

"إن الأسس السفلى للاستشراق لم تخضع لمنهج الشك هذا، بل اتخـذت كمسلمات وحقائق، وهذا ينافي طرق البحث العلمي المنهجي"[١].

فلم تستطع الأجيال المتوالية من المستشـرقين الـتخلص مـن قبضـة الأحكام المسبقة التي وضعها جيل الرواد في مجال الاستشراق.

ولو حاولنا استعراض المناهج العلمية التـي اسـتخدمها المستشـرقون عموما في دراسة الحضارة الإسلامية، لما وجـدناها تخـرج عـن المـنهج التاريخي، والمنهج التحليلي، والمنهج الإسقاطي، ومـنهج التـأثير والتـأثر، ومنهج المطابقة والمقابلة، وهذه المناهج تستند إلى المذهب الوضعي الـذي طبقه المستشرقون على الدراسات الإسلامية في القرن التاسع عشر والقـرن العشرين، ولم يحيدوا عنه إلى الآن بالرغم من نبذ هذا المذهب فـي الوقـت الحاضر في الدراسات الإنسانية[٢].

ولا يختلف الاستشراق العبري عـن الاستشـراق الغربـي مـن حيـث استخدامه لتلك المناهج في دراسة الإسلام.

والفصل بين المناهج العلمية أمر غير ممكن في البحث العلمـي، ولكـن قيام الدراسات النظرية بتقسيم المناهج يتم من أجل دراستها فحسب[٣].

* * *

وفيما يلي عرض لأهم المناهج التي اسـتخدمها المستشـرقون عمومـا استخداما غير موفق في مجال الدراسات الإسلامية، على الـرغم مـن عـدم صـلاحية هـذه المنـاهج فـي معالجـة الموضـوعات المدروسـة:

---

١ المسلاتي (مصطفى نصر) ، الاستشراق السياسي في النصف الأول من القرن العشرين ، دار اقرأ ، طرابلس ، ط ١٩٩٠م ، ص ٢٣٠.

٢ الحاج ، ج ١ ، ص ١٦٦.

٣ بدوي (عبد الرحمن) ، مناهج البحث العلمي ، وكالة المطبوعات ، الكويت ، ط ثالثة ١٩٧٧م ، ص ١٦.

(أ) المنهج التاريخي:

منهج البحث التاريخي هو المراحل التي يسير خلالها الباحث حتى يبلغ الحقيقة التاريخية – بقدر المستطاع – ويقدمها إلى المختصين والقراء[١].

ويقوم المنهج التاريخي في البحث العلمي على تعقب وتتبع الظاهرة المدروسة تاريخيا من خلال أحداث ووقائع أثبتها المؤرخون أو تناقلتها الروايات أو ذكرها الأفراد وتم تسجيلها في أحد المصادر التي يمكن الوقوف عليها والرجوع إليها. وتتم دراسة الأحداث التاريخية من خلال التعرف على جزئياتها، وتحديد العلاقات التي تربط بين هذه الجزئيات وبين الحدث الذي يتم دراسته تاريخيا، ومدى توافق هذه الجزئيات واتساقها مع الإطار العام لحركة الموضوع تاريخيا ومع سياقه ومعالمه التي سجلها الزمن أو دلت عليها التراجم والأحداث وروايات معاصريها[٢].

لكن المنهج التاريخي الذي طبقه المستشرقون على الدراسات الإسلامية هو عبارة عن ترتيب وقائع تاريخية أو اجتماعية وتبويبها ثم الإخبار عنها والتعريف بها باعتبارها الظاهرة الفكرية ذاتها[٣].

ومعنى ذلك أن المستشرق لايبدأ من الوقائع التاريخية ويسير معها لاستخراج النتيجة، وإنما يبدأ بوضع النتيجة ثم يبحث في بطون كتب التاريخ عن الروايات التي يمكن أن تعضد موقفه، حتى وإن كانت تلك الروايات ضعيفة ومخالفة للسياق التاريخي العام للظاهرة المدروسة.

---

١ عثمان (حسن) ، منهج البحث التاريخي ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ثامنة ٢٠٠٠م ، ص ٢٠.

٢ معوض (محمد عبد الغني) ، الخضيري (محسن أحمد) ، الأسس العلمية لكتابة رسائل الماجستير والدكتوراة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ط ١٩٩٢م ، ص ٤٣.

٣ الحاج ، ج ١ ، ص ١٦٧.

وقد يصلح هذا المنهج التاريخي لدراسة المسيحية التي نشأت في بيئة دينية وتميزت بدخول العديد من المؤثرات الخارجية كالبابلية والأشورية والغنوصية[١] على نصها الديني، وهذا المنهج يتيح للباحث الكشف عن العناصر الأساسية التي ساعدت على تكوين المسيحية الأولى، أما عند تطبيق المستشرق لهذا المنهج التاريخي على الدراسات الإسلامية فإن النتائج العلمية لن تكون صحيحة؛ لأنه يحيل كل شيء إلى ظواهر تاريخية، انطلاقا من إنكار النبوة والوحي المحمدي[٢].

* * *

(ب) المنهج التحليلي:

المنهج التحليلي الذي طبقه المستشرقون على الدراسات الإسلامية يعني تفتيت الظاهرة الفكرية المدروسة إلى مجموعة من العناصر، يتم التأليف بينها في حزمة غير متجانسة من العوامل أو الوقائع التي أدت إلى نشأتها، أي أن هذا المنهج يقوم بتفتيت الظاهرة الفكرية وردها إلى عناصرها الأولية كالظروف الاجتماعية أو السياسية أو الدينية، فإذا ما قام المستشرق بتطبيق هذا المنهج في الدراسات الإسلامية، وهو متأثر بمزاجه وثقافته وبيئته ودينه الذي نشأ فيه، فإنه يصل به إلى نتائج غير سليمة[٣].

---

١ "الغنوصية" (Gnosticism): من الكلمة اليونانية "Gnose" التي تعني "المعرفة". وهي مذهب ديني يقول بأن المعرفة هي الطريق إلى الله، وقد ظهرت الغنوصية في القرن الأول الميلادي، وتطورت في القرن الرابع الميلادي، وصار لها عدة مذاهب، وقد تسربت الغنوصية إلى اليهودية، وأدى ذلك إلى ابتعاد أتباع هذا المذهب عن اليهودية ونقلتهم فكرة الإيمان بالمسيحانية إلى المسيحية، وقد تجزأت الغنوصية إلى طوائف، ربما كان منها الصابئة أو المندعية.

لمزيد من التفصيل انظر: ظاظا (حسن) ، الفكر الديني الإسرائيلي – أطواره ومذاهبه ، معهد البحوث والدراسات العربية بجامعة الدول العربية ، ط ١٩٧١م ، ص ٢٨٨ – ٢٨٩.

٢ الحاج ، ج ١ ، ص ١٦٨.

٣ المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٦٨.

وقد عارض المستشرق "تور أندريه" (Tor Andrae) هـذه الطريقـة العقيمة التي سلكها بعض المستشرقين في دراساتهم، مبينا أن جوهر النبـوة لا يمكن تحليله إلى مجموعة من آلاف العناصر الجزئية[١].

والإسلام لا ينكر صلاته باليهودية والمسيحية والعقيدة الحنيفية والتقاليد العربية القديمة، لكن ذلك لا يعني أنه مجرد مجموعة من هذه العناصر[٢].

* * *

(ج) المنهج الإسقاطي:

يتمثل المنهج الإسقاطي في خضوع الباحث لأهوائه، وعدم قدرته علـى التخلص من الانطباعات التي تركتها لديه بيئته الثقافية، وعدم تحـرره مـن الأحكام المسبقة التي يكونها على موضوع بحثه سواء أكانت هـذه الأحكـام عقلية أم انفعالية. فقد يضع الباحث في ذهنه صورة محددة لأفكار معينة غير موجودة من الناحية الفعلية، ويسعى إلى إثبات وجود هذه الأفكار، وإلى إثبات انطباق صورته الذهنية على هذه الأفكار مهمـا كانـت منتفيـة، وإذا كانـت الظاهرة الفكرية موجودة فعلا ولكن لا تصور لها في ذهنه، فإنه يحاول نفيها مهما كانت صحة وجودها، فالباحث يحاول إسقاط صورة ذهنية معينـة علـى صورة أخرى، ويحاول إخضاع هذه الصورة الأخرى للصورة الذهنية المتكونة لديه سلفا، وإن جانب الموضوعية العلمية[٣].

وقد طبق المستشرقون هذا المنهج الإسقاطي على الدراسات الإسـلامية، ووصلوا بتطبيقه إلى أحكام تعسفية لا صلة لها بالتحليل العلمي السليم[٤].

---

١ نقرة (التهامي) ، القرآن والمستشرقون ، بحث منشور في مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية ، ج ١ ، مكتب التربية العربي لدول الخليج ، والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، تونس ، صدر في إطار الاحتفال بالقرن الخامس عشر الهجري ، ص ٣٦.

٢ المرجع السابق ، ص ٣٦.

٣ الحاج ، ج ١ ، ص ١٦٩.

٤ المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٦٩.

وقد يتفق مثل هذا المنهج مع تصور مشابه يطلق عليه البعض المنهج العكسي في دراسة الظواهر الإسلامية، وهو ذلك المنهج الذي يأتي إلى أوثق الأخبار وأصدق الأنباء فيقلبها عمدا إلى عكسها، وفقا لتصور مسبق يسيطر على ذهن الباحث[١].

* * *

(د) منهج التأثير والتأثر:

منهج التأثير والتأثر الذي طبقه المستشرقون على الدراسات الإسلامية يعني عدم أصالة الدين الإسلامي برمته؛ إذ يردون كل الظواهر الإسلامية إلى عوامل خارجية مؤثرة في نشأة الإسلام وفي تطوره[٢].

لقد تأثر المستشرقون بهذا المنهج؛ لأنه طبق في بيئتهم بصورة صارمة، ذلك أن النهضة الأوروبية تأسست على الحضارة اليونانية، وكلما أنشئ مذهب فكري أو ديني جديد وُجِدَ له نظير في الحضارة اليونانية القديمة، ومن هنا رسخ في أذهان المستشرقين أن كل حضارة حديثة تستمد أصولها من الحضارة اليونانية القديمة، ومن خلال هذا الحكم طبقوا هذا المنهج على الحضارة الإسلامية، وحاولوا تفسير أفكارها ومناهجها طبقا لمنهج التأثير والتأثر[٣].

---

[١] إدريس ، الاستشراق الإسرائيلي في المصادر العبرية ، ص ٤٤ ؛ محمود (عبد الحليم) ، أوربا والإسلام ، دار المعارف ، القاهرة ، ط رابعة ١٩٩٣م ، ص ١٢٨ ؛ دينيه (إتيين) ، إبراهيم (سليمان) ، محمد رسول الله ، ترجمة عبد الحليم محمود ، محمد عبد الحليم ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ثالثة ١٩٨٦م ، ص ٥٠. [المترجم]

[٢] إدريس ، الاستشراق الإسرائيلي في المصادر العبرية ، ص ٤٠.

[٣] الحاج ، ج ١ ، ص ١٧٠ – ١٧١.

ومن ذلك قول المستشرق "إجناتس جولدتسيهر" (יצחק יהודה גולדציהר = Ignaz Goldziher)[١]: "إن محمدا [ﷺ] مؤسس الإسلام لم يأت بجديد من الأفكار ... إن دعوة النبي العربي [ﷺ] ليست إلا مزيجا منتخبا من مفاهيم دينية، توصل إليها من خلال اتصاله بأسس الدين والعقيدة لدى اليهود والمسيحيين وغيرهم".

فالمستشرق يحاول أن ينزع عن الإسلام أصالته، وينفي المصدر الإلهي للقرآن، ويفسر الإسلام في ضوء نظرية التأثير والتأثر.

والمستشرقون – بصفة عامة – يلتمسون أوجه الشبه بين أية ظاهرة إسلامية وغيرها في اليهودية أو المسيحية أو "الزرادشتية"[٢] أو "البوذية"[٣] أو "المانوية"[٤] أو الحضارة اليونانية، ليسارعوا بإطلاق أحكامهم بأن الإسلام تأثر في ذلك بما سبقه من ديانات أو عقائد أو حضارات، مهما كان هذا

---

١ العقيدة والشريعة في الإسلام ، تعريب محمد يوسف موسى وآخرَيْن ، دار الكتب الحديثة – القاهرة ، ومكتبة المثنى – بغداد ، ط ثانية ١٩٥٩م ، ص ١٢ ؛ הרצאות על האיסלאם , תרגום יוסף יואל ריבלין , הוצאת מוסד ביאליק , ירושלים , הדפסה שלישית 1978 , עמ´ 10 ؛
Introduction to Islamic Theology and Law, Princeton University Press, Princeton, New Jersey, 1981, p 5.
هذا الكتاب سالف الذكر ألفه "جولدتسيهر" ونشره للمرة الأولى بالألمانية عام (١٨٨١م) تحت عنوان "محاضرات عن الإسلام"، ثم ترجم إلى الفرنسية عام (١٩٢٠م) تحت عنوان "العقيدة والشريعة في الإسلام"، وترجم إلى العربية بنفس العنوان الفرنسي ، في حين ترجم إلى العبرية بنفس العنوان الألماني.
ومن اللافت للنظر أن الترجمة العبرية ذكرت اسم المؤلف "إسحاق يهودا جولدتسيهر" في مخالفة للترجمات الأخرى التي تذكر اسم المؤلف "إجناتس جولدتسيهر".
تنويه: النصوص التي ترد في هذه الدراسة لآراء جولدتسيهر من كتابه "العقيدة والشريعة في الإسلام" سالف الذكر سوف تأتي وفقا للترجمة العبرية من هذا الكتاب ، وهي تختلف قليلا عن الترجمة العربية والإنجليزية. ولتمام الفائدة سيتم تحقيق النص المذكور في الترجمات الثلاث.

٢ "الزرادشتية": ديانة تنسب إلى "زرادشت"، الذي ولد في "أذربيجان"، حوالي القرن السادس قبل الميلاد. ويعتقد الزرادشتيون في الإله الواحد وفي اليوم الآخر. والكتاب المقدس للزرادشتية يسمى "الأفستا".

٣ "البوذية": ديانة تنسب إلى "بوذا"، الذي ولد في "الهند"، حوالي القرن السادس قبل الميلاد. وتدور عقائد البوذية حول المعاناة في الحياة والطرق التي تؤدي إلى إيقاف هذه المعاناة.

٤ "المانوية": ديانة تنسب إلى "ماني"، الذي ولد في "بابل"، حوالي القرن الثالث الميلادي. ومن أهم عقائد المانوية أن العالم مركب من أصلين: النور والظلمة.

التشابه متعسفا أو مبالغا فيه، فضلا عن أنهم اتخذوا من منهج الشك قاعدة ينطلقون منها في رفضهم لنبوة محمد (ﷺ).

* * *

(هـ) منهج المطابقة والمقابلة:

يطلق عليه أحيانا المنهج الفيولولوجي[١].

ويعتمد هذا المنهج في الدراسات الإسلامية على المطابقة والمقابلة بين عدد من النصوص المجمعة، ومحاولة التوفيق بينها، واستخلاص النتائج العلمية من استقرائها. والحق أن المستشرقين قد برعوا في استخدام هذا المنهج، وساعدهم على ذلك معرفتهم بالعديد من اللغات واطلاعهم على آلاف المخطوطات واكتشافهم للمئات من النقوش والآثار، كما برعوا في الترجمة وتحقيق النصوص وإرجاعها إلى مصادرها الأصلية، لكن هذه الطريقة لم تسلم من الخطأ هي الأخرى، خاصة إذا كان استخدامها لغرض البرهنة على فرضية علمية رسخت في ذهن المستشرق طبقا لأحكام مسبقة، فيحاول المستشرق تطويع النصوص واستقراءها للبرهنة على صحة تلك الفروض[٢].

ومن ذلك أن بعض المستشرقين درسوا النصوص القرآنية وفقا لفرضية علمية رسخت في أذهانهم وطبقا لأحكام مسبقة مفادها أن هذه النصوص القرآنية ليست إلا صورة لما ورد هنا أو هناك قبل البعثة المحمدية، فكلما تطابقت ملامح نص قرآني مع نص سابق، سارعوا برد ذلك النص إلى ثقافة الرسول (ﷺ) التاريخية، وإلى اطلاعه على ما جاء في الكتب السابقة، أما حين يوجد الاختلاف، فلا يردون ذلك إلى ما حل بنصوصهم من تغيير وتبديل وتحريف، وإنما يلصقون تهمة التحريف والتبديل بالإسلام ذاته[٣].

---

١ إدريس ، الاستشراق الإسرائيلي في المصادر العبرية ، ص ٤٢.

٢ الحاج ، ج ١ ، ص ١٧١.

٣ إدريس ، الاستشراق الإسرائيلي في المصادر العبرية ، ص ٤٢.

ثانيا: الآليات التطبيقية المستخدمة في الدراسات الاستشراقية:

لا تقف أزمة المنهج لدى المستشرقين عند حد استخدام مناهج غير ملائمة لمجال الدراسات الإسلامية فحسب، بل تعدى الأمر ذلك إلى استخدام آليات فاسدة عند تطبيق المناهج العلمية في مجال الدراسات الإسلامية؛ وذلك بهدف تشويه الحقيقة والخروج بنتائج مضللة، مقررة سلفا لديهم قبل الشروع في الدراسة ذاتها، وربما تستخدم هذه الآليات الفاسدة مع مناهج علمية مناسبة بهدف إفساد النتائج، ويزداد الأمر سوءا عندما يجتمع فساد الآليات مع عدم صلاحية المنهج.

ولنضرب على ذلك مثالا باستخدام المنهج الاستدلالي الذي يعد منطقيا وصالحا ومناسبا في مجمله، "وهو الذي نسير فيه من مبدأ إلى قضايا تنتج عنه بالضرورة دون التجاء إلى التجربة"[١].

ويعتمد على أربعة أسس: التعريفات والبديهيات والمسلمات والنظريات.

وعند تطبيق المستشرقين لهذا المنهج في الدراسات الإسلامية لم يلتزموا بقواعده، بل ضربوا بها عرض الحائط، ولم يعيروا للأسس التي قام عليها انتباها، فاندفعوا إلى مخالفة قواعد المنهج الاستدلالي في محاولة لإثبات الرؤى والتصورات المسبقة، ومن ثم قدموا الأحكام على الأدلة، وقدموا النتائج على المقدمات، وافترضوا الأدلة في أحيان وانتحلوها في أحيان أخرى، وتصيدوا الضعيف والشاذ من الروايات، وأغفلوا الأدلة الصحيحة وأسقطوها، واعتمدوا على الاستنتاج الخاطئ، وعمموا الأحكام، فبلغوا من الإغراب منتهاه[٢].

---

[١] بدوي ، مناهج البحث العلمي ، ص ١٨.

[٢] أبو دنيا (عبد المنعم صبحي أبو شعيشع) ، الاستشراق اليهودي- أسبابه وأهدافه وطرق مواجهته ، دار الجامعة الجديدة ، الإسكندرية ، ط ٢٠٠٨م ، ص ١١٢ – ١١٥.

وبهذه الآليات التطبيقية الفاسدة والمخالفات لقواعد هذا المنهج، تخرج دراساتهم بنتائج مضللة، رغم صلاحية المنهج ذاته للتطبيق.

وفيما يلي عرض لأهم الآليات الفاسدة التي طبقها المستشرقون في دراساتهم، مع الأخذ في الاعتبار أن المستشرق قد يلجأ أحيانا إلى الجمع بين تطبيق أكثر من آلية في آن واحد في محاولة لإثبات وجهة نظره.

* * *

(أ) تحريف النصوص:

قد يلجأ بعض المستشرقين إلى تشويه النص وتغيير معناه وإخفاء المراد منه عن طريق التحريف[١]، وبالتالي يصل المستشرق إلى نتيجة مخالفة للحقيقة رغم صحة الاستدلال ومنطقيته.

ويعد التحريف من التهم التي تم توجيهها لليهود في القرآن الكريم: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾[٢]، ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾[٣].

* * *

(ب) تأويل النصوص:

قد يلجأ بعض المستشرقين إلى المغالطة عن طريق تأويل بعض النصوص، وهو ما يعد نوعا من التحريف، لكنه يختلف عن التحريف السابق ذكره في أن التحريف ينصب على متن النص، مما ينتج عنه تغير المعنى، في حين يستهدف التأويل تغيير معنى النص مباشرة دون تحريف متنه.

ومن ذلك إفراط بعض المستشرقين في تأويل النصوص وتحميلها ما لا تحتمل من المعاني، وطرح التفسيرات السائدة المقررة لهذه النصوص، وتأويلها تأويلا جديدا، وهو ما يتنافى مع المنهج العلمي الدقيق[٤].

---

١ أبو دنيا ، ص ١٣٢.

٢ النساء ٤٦ ؛ المائدة ١٣.

٣ المائدة ٤١.

٤ أبو دنيا ، ص ١٣٨.

(ج) المغالطة والتدليس:

يقصد بذلك محاولة خداع السامع أو القارئ، وإيهامه غير الحقيقة.

*　　*　　*

(د) البناء والهدم:

وتقوم هذه الآلية على عنصرين بارزين، هما: البناء أولا، بمعنى الإطراء والمديح من قِبَل المستشرق لبعض الجوانب الثانوية في الظاهرة موضوع الدراسة، ثم الهدم ثانيا؛ إذ يوجه المستشرق سهامه إلى صلب الموضوع ليجرده من كل مقوماته حتى يسقطه تماما[١].

وقد يخلط المستشرق بين المدح والذم في سياق واحد، فهو يمدح ليبدو موضوعيا أمام قارئه؛ ليقنعه بقبول وجهة نظره عندما يبدأ في الذم والهجوم.

*　　*　　*

(هـ) تهويد الإسلام:

تعد هذه الآلية من أخطر الآليات التي يستخدمها المستشرقون اليهود؛ إذ يسعون دائما إلى صبغ كل ما هو إسلامي بصبغة يهودية؛ لترسيخ فكرة أن الإسلام ما هو إلا البنت الصغرى لليهودية، أو هو يهودية جاءت متوائمة مع مفاهيم القبائل العربية وإدراكها، حسب تعبير المستشرق اليهودي "أهارون بن شيمش" (אהרון בן שמש)[٢].

ورغم تبني الدراسات الاستشراقية العبرية لفكرة تعدد الروافد التي أمدت نبي الإسلام (ﷺ) بثقافته ومعارفه الدينية، وفقا لرؤية هؤلاء المستشرقين، إلا أن كثيرا من المستشرقين اليهود يركزون على المصدر اليهودي للإسلام بصفة خاصة.

---

[١] إدريس ، الاستشراق الإسرائيلي في المصادر العبرية ، ص ٤٦.

[٢] הקוראן – ספר הספרים של האשלאם – תרגם מערבית , הוצאת ספרים קרני , תל־אביב , 1978 , עמ׳ י.

(و) تصيد الآراء والروايات والأخبار الشاذة من بطون كتب الحديث والأدب والتاريخ والسير والتفاسير:

اعتمد بعض المستشرقين في بعض أبحاثهم ودراساتهم على الروايات الشاذة والمنكرة وعلى غيرها من الروايات الضعيفة التي أسقطها علماء المسلمين، وتبينوا ضعفها بعد دراسات مستفيضة وتقص للحقيقة في شأنها، وذلك على الرغم من معرفة هؤلاء المستشرقين بكتب رجال الحديث والكتب التي تولت بيان الأحاديث الصحيحة من الضعيفة والموضوعة، ولكنهم مع سبق الإصرار على الجناية والخيانة العلمية ينقلون ما ينقلون[١].

وكثيرا ما يلتجئ المستشرقون إلى بطون كتب الأدب والتاريخ يبحثون عن ضالتهم ويجدون بغيتهم فيها، دون أدنى اكتراث بما يشكله اعتماد تلك المصادر من خلل منهجي كبير، خاصة إذا تعلق الأمر بأمور جوهرية[٢].

وقد أولى المستشرقون اهتماما خاصا بكتاب "الأغاني" للأصفهاني، وهو كتاب لم يصنفه صاحبه في التاريخ، وإنما هو كتاب في الأدب الغنائي، وهو يزخر بالأخبار التالفة والروايات الساقطة[٣].

ومما يبعث على العجب أن تجد من المستشرقين مثلا مَن ينقلون من كتب الأدب ما يحكمون به في تاريخ الحديث، ومن كتب التاريخ ما يحكمون به في تاريخ الفقه، ويصححون ما ينقله "الدميري" في كتاب "الحيوان"

---

١ الجبري (عبد المتعال محمد) ، الاستشراق وجه الاستعمار الفكري ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ط ١٩٩٥م ، ص ٢٣١.

٢ أبو دنيا ، ص ١٢٤.

٣ حول القيمة التاريخية لكتاب الأغاني ، انظر: نصر (الصديق بشير) ، التعليقات النقدية على كتاب دراسات محمدية ، مركز العالم الإسلامي لدراسة الاستشراق ، لندن ، ط ثانية ٢٠٠٩م ، ص ٢٥٢ – ٢٥٤. ولمزيد من التفصيل حول هذا الموضوع ، انظر: الأعظمي (وليد) ، السيف اليماني في نحر الأصفهاني صاحب الأغاني ، دار الوفاء ، المنصورة ، ط ١٩٨٨م ، ص ٢٠ – ٤٣.

ويكذبون ما يرويه "مالك" في "الموطأ"، كل ذلك انسياقا مع الهوى، وانحرافا عن الحق[١].

وكتب التاريخ مليئة بالروايات التي تحتاج إلى تحقيقها والتأكد من صحتها قبل الاعتماد عليها، ومنها كتاب تاريخ الرسل والملوك للطبري. لقد جمع الطبري في تاريخه كل ما وقع عليه من روايات تاريخية، ونبه القارئ والدارس والباحث إلى ضرورة جرح وتعديل الرواية التاريخية قبل استخدامها والاعتماد عليها؛ لأنه قد أسند، ومن أسند فقد حمَّلك[٢].

قال "الطبري"[٣]: "فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارئه، أو يستشنعه سامعه؛ من أجل أنه لم يعرف له وجها في الصحة، ولا معنى في الحقيقة، فليعلم أنه لم يؤت في ذلك من قِبَلنا، وإنما أُتِي من قِبَل بعض ناقليه إلينا، وأنَّا إنما أدينا ذلك على نحو ما أُدِّي إلينا".

وقد وجد المستشرقون مصدرا خصبا ينهلون منه باعتمادهم على نوعية معينة من كتب التاريخ التي لم يلتزم فيها أصحابها صحة النقل ولا صحة التأويل، كتاريخ "اليعقوبي" وتاريخ "المسعودي"، وقد كان لتشيعهما أثر كبير في تخيرهما للروايات وتوجيه النصوص، ثم إن مجرد تعويل هؤلاء المستشرقين على هذه النوعية من الكتب يدعو إلى الشك في أمرها، وتكون الطامة أشد إذا كان النقل من كتاب لم تصح نسبته لصاحبه، ككتاب "الإمامة

---

[١] السباعي (مصطفي) ، السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي ، دار الوراق والمكتب الإسلامي، ط ثانية ٢٠٠٠م ، ص ٢١٣.

[٢] مسعود (جمال عبد الهادي محمد) ، جمعة (وفاء محمد رفعت) ، منهج كتابة التاريخ الإسلامي – لماذا ؟ وكيف ؟ ، دار الوفاء ، المنصورة ، ط ثالثة ١٩٩٤م ، ص ٢٠.

[٣] تاريخ الطبري – تاريخ الرسل والملوك ، ج ١ ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ثانية ١٩٦٧م ، ص ٨.

والسياسة" المنسوب لابن قتيبة، أو من كتاب كان مؤلفه مجهولا، ككتاب "العيون والحدائق"[١].

"إن معرفة كاتب الأصل التاريخي وشخصيته مسألة مهمة؛ لأن قيمة المعلومات التي يوردها ترتبط كل الارتباط بشخصية الكاتب ومدى فهمه للحوادث، وبكل الظروف التي تحيط به على وجه العموم"[٢].

ولا يقتصر الأمر على انتقاء روايات تاريخية معينة، أو تفسير النص التاريخي تفسيرا خاصا يخدم هدف المستشرق، بل قد يحدث أن يقوم المستشرق بتكييف النص التاريخي للفكرة المسيطرة على ذهنه دون وعي منه، فبعض الباحثين في التاريخ يقومون ببحثهم وهم واقعون تحت سيطرة فكرة معينة عن حادث ما، وفي مثل هذه الحالة يرفض ذهن الباحث قبول الأفكار والآراء المعارضة، وتكون النتيجة ألا يأخذ الباحث بما يورده النص التاريخي من حقائق، وبذلك يتكيف النص التاريخي ويتشكل بحسب الفكرة المسيطرة على ذهن الباحث، وعندها قد يظن الباحث أنه يفسر النص تفسيرا حديثا مبتكرا، ولكن الحقيقة أنه يُخضع النص لفكرته الخاصة على حساب الحقيقة التاريخية، ويأخذ الحادث التاريخي اللون والتفسير والمدلول الملائم الذي يريده له عقل الباحث، ومن شأن هذا كله أن يبعد بالباحث عن الوصول إلى الحقيقة التاريخية التي ينشدها[٣].

وفي كثير من الأحيان يميل الباحث في التاريخ إلى تصديق كل المعلومات الواردة في أصل تاريخي ما، ولكن هذا معناه أن كل مدوني الأصول التاريخية لم يكذبوا على الإطلاق، ولم يُخدعوا أبدا، ولم تخف عنهم خافية، ولم يرتكبوا أية أخطاء في جمع معلوماتهم، وهذا ما لا يمكن قبوله على الإطلاق[٤].

---

١ نصر ، ص ١٦١ – ١٦٣.

٢ عثمان ، ص ٨٩.

٣ المرجع السابق ، ص ١١٨.

٤ المرجع السابق ، ص ١٢٤.

وما يحدث عند التعامل مع كتب التاريخ قد يحدث أيضا مع كتب التفسير، فقد يَجْمَع المفسرون المسلمون كل ما قيل عن تفسير الآية دون تمحيص، فيعمد المستشرق إلى التفسير الذي يخدم غرضه ويطرح ما عداه.

* * *

(ز) التدرج بالرواية:

يقصد به الترقي بالرواية من درجة الشك إلى درجة اليقين عبر سلسلة من النقولات المتعاقبة لهذه الرواية.

وذلك كأن ينقل أحد المستشرقين خبرا ينسبه إلى الرسول (ﷺ) أو إلى القرآن الكريم، ويذكر أن النص الذي نقله لا دليل على إثباته ولا يعلم تاريخه، ثم يأتي بعد حين مستشرق آخر ويروي هذا الخبر المشكوك في صحته، دون أن ينص على أنه موضع شك، ثم يأتي ثالث لينقل نفس الخبر عن الثاني، ذاكرا ثبوت هذا الخبر وموثقا له، ثم يأتي الباقون من الدارسين فينقلون الخبر عن المرجع الأخير، دون تعقب لمدى صحته، ثم يعقبون عليه ويحللونه ويستنبطون منه النتائج، حتى يستقر في الأذهان على أنه حقيقة مطلقة لا تقبل الجدل، بل يكذبون به الحقائق المستقرة والأدلة الثابتة. وقد يشير أحد هؤلاء المستشرقين إلى فكرة ما من طرف خفي، ويأتي آخر فيقرر أن هذه الفكرة جائزة، ثم يأتي ثالث فيرفع هذا الجواز إلى مرتبة النظرية، وأما الرابع فيخلق من النظرية حقيقة، وهكذا تتطور الفكرة أربعة أو خمسة أطوار حتى ينتهي بها المطاف إلى أن تصبح حقيقة مقررة[١].

ومن ذلك أيضا تغيير معالم الرواية الأصلية عن طريق حذف بعض عناصرها وإضافة عناصر جديدة إلى هذه الرواية الأصلية، ثم ترديد الرواية بعناصرها الجديدة حتي تستقر في الأذهان بصورتها النهائية التي تختلف عن الرواية الأصلية.

---

[١] الجبري ، ص ٢٣٠.

(ح) تجاهل تفاوت منازل المصادر في الثقة والتعويل:

دأب عدد من المستشرقين على تصيد واقتناص الروايات والأخبار التي تخدم أغراضهم وتحقق أهدافهم، متجاهلين تفاوت منازل المصادر ودرجاتها من حيث الثقة والمصداقية وصلاحية التعويل عليها من عدمه.

ويعمد بعض المستشرقين إلى تقديم كتب ثانوية غير موثوقة على ما هو معروف لديهم من كتب موثوقة معول عليها، ولعل هذا الخطأ كفيل بأن يؤدي إلى نتائج مغلوطة وخاطئة، أريد لها أن تكون كذلك، فالمصادر الموثوقة ليس فيها ما يسعف القوم على تبرير وتسويغ ما يرمون إليه من الاستنتاجات والأحكام المغرضة[1].

* * *

(ط) اعتماد عدد محدود من المصنفات في مجالات الدراسات الإسلامية، وتجاهل المصادر العربية الإسلامية:

من خلال تتبع أعمال المستشرقين في مجال الدراسات الإسلامية، يمكن ملاحظة أن بعضهم يعتمدون عددا محدودا من المصادر والمراجع في كل مجال من مجالات الدراسات الإسلامية، وغالبا ما يلجئون إلى مراجع كبار المستشرقين ينقلون منها رغم ما فيها من الآراء المتحيزة والمضللة، متجاهلين العودة إلى المصادر العربية الإسلامية للتيقن من صحة ما ينقلون.

وهنا تجدر الإشارة إلى أن المصنفات المعتمدة لدى المستشرقين اليهود المعاصرين هي نفسها التي كان يعتمدها أسلافهم، وبالتالي يمكن القول بأن حصر المصادر ونوعيتها يكاد يكون تقليديا في البحث الاستشراقي اليهودي[2].

---

١ أبو دنيا ، ص ١٢٨.

٢ المرجع السابق ، ص ١٢٦.

وفيما يتعلق بالآليتين التطبيقيتين الأخيرتين (ح ، ط)، تجدر الإشارة إلى أن المستشرق إذا فعل ذلك عن غير عمد، فإنه يكون بذلك قد ارتكب خطأ منهجيا، أما إذا فعله متعمدا، فإنه يكون بذلك قد استخدم آلية تطبيقية تمكنه من الوصول إلى النتيجة التي يبتغيها، والتي تتفق مع أهوائه الشخصية.

ودراستنا لمنهجية المستشرقين تجعلنا أقرب إلى اعتبار "تجاهل تفاوت منازل المصادر في الثقة والتعويل"، و"اعتماد عدد محدود من المصنفات في مجالات الدراسات الإسلامية، وتجاهل المصادر العربية الإسلامية" ضمن الآليات التطبيقية لا الأخطاء المنهجية.

* * *

ثالثا: الأخطاء المنهجية في الدراسات الاستشراقية:

هناك عدد من المبادئ العلمية التي ينبغي على الباحث الالتزام بها في الدراسات العلمية، والتي يمثل انتهاكها والتهاون في الالتزام بها من قِبَل بعض الباحثين قدحا في علمية دراساتهم، ومن أهمها: الدقة، والموضوعية، وتوثيق المعلومات من مصادرها المعول عليها، والبعد عن التعميمات.

ويعد انتهاك هذه المبادئ من قِبَل بعض المستشرقين خطيئة أخرى تضاف إلى ما سبق ذكره من خطايا تمثلت في استخدام مناهج علمية غير مناسبة في مجال الدراسات الإسلامية، أو اللجوء إلى آليات من شأنها أن تأتي بنتائج مضللة إذا ما تم تطبيقها في هذا المجال.

ومن الأخطاء المنهجية التي وقع فيها بعض المستشرقين في دراساتهم:

(أ) عدم الالتزام بالدقة:

تمثل الدقة ركيزة من ركائز البحث العلمي الرصين، وينبغي على الباحث أن يتحرى الدقة في كل خطواته البحثية، وخاصة فيما يتعلق بصحة المعلومات التي يوردها في دراسته العلمية؛ إذ قد يؤدي تساهل الباحث وعدم

دقته إلى فقدان الدراسة لقيمتها العلمية بشكل كلي، أو لكثير من قيمتها وأهميتها على أقل التقديرات.

وفي مجال الدراسات العربية والإسلامية قد تنشأ عدم الدقة جراء عدم المعرفة، وذلك نتيجة لضعف التكوين العلمي لبعض المستشرقين وقلة معرفتهم بأساليب اللغة العربية وأسرارها، وضعف معرفتهم بالعديد من القضايا الإسلامية التي يتعرضون لمناقشتها.

* * *

(ب) عدم الالتزام بالموضوعية:

تمثل الموضوعية مبدأ من أهم مبادئ البحث العلمي، بيد أن عددا ليس بالقليل من المستشرقين تسيطر على دراساتهم النزعة الذاتية، فيطلقون الأحكام، ويحللون الأحداث بشكل يتنافى مع أدنى مستويات الموضوعية.

* * *

(ج) عدم الرجوع إلى المصادر الأصيلة:

من الضروري لأية دراسة علمية منهجية أن تعتمد على مصادر موثوقة وأصيلة عند معالجة قضية من القضايا، فكما لا يصح أن يتحدث الباحث عن التوراة اعتمادا على ما يقوله بعض علماء المسلمين دون الرجوع إلى التوراة نفسها، فكذلك لا ينبغي لباحث نزيه أن يدرس الإسلام دون الرجوع إلى المصادر العربية الإسلامية الأصيلة[1].

وقد دأب بعض المستشرقين اليهود على الكتابة عن الإسلام اعتمادا على كتابات سابقيهم من المستشرقين، دون الرجوع إلى المصادر العربية الإسلامية الأصيلة، ما أدى إلى تكرار نفس الأفكار والأخطاء والشبهات، الأمر الذي حرم هذه الدراسات من الابتكار وأفقدها الأصالة وجعلها نسخة مكررة من كتابات المستشرقين السابقين.

---

[1] إدريس ، الاستشراق الإسرائيلي في المصادر العبرية ، ص ١٦٠.

ونظرة سريعة على عدد من قوائم المصادر والمراجع لعدد من الدراسات التي كتبت عن الإسلام بالعبرية كفيلة بإثبات صحة هذا الرأي[١].

* * *

(د) عدم توثيق المعلومات وعدم تحقيق الروايات:

يعد توثيق المعلومات وتحقيق الروايات من أبجديات البحث العلمي التي ينبغي على أي باحث الالتزام بها في دراسته العلمية، حتى يتسنى للقارئ أو الناقد التحقق من صحة ما يورده هذا الباحث في دراسته.

وقد استشرت في العديد من الدراسات الاستشراقية آفة عدم توثيق المعلومات وعدم تحقيق الروايات، وعلى فرض حسن النوايا فإن ذلك يعد خطأ منهجيا، يجدر بالباحث المبتدئ عدم ارتكابه، أما على فرض سوء النوايا فإن اللجوء لذلك، يعد وسيلة غير شريفة تمكن بعض المستشرقين من تزوير الحقائق وتشويه الروايات، وذلك كثير في الاستشراق العبري[٢].

* * *

١ على سبيل المثال: تخلو قائمة المصادر والمراجع لكتاب "دين الإسلام" (דת האיסלאם) للمستشرق "يعقوب كوهين" (יעקב כהן) من أية مراجع عربية، وتخلو قائمة المصادر والمراجع لكتاب "الإسلام – خطوط عريضة" (האיסלאם – קווי יסוד) للمستشرقة "حافا لاتسروس يافيه" (חוה לצרוס־יפה) من أية مراجع عربية، وتقتصر قائمة المصادر والمراجع لكتاب "أحاديث أخرى عن دين الإسلام" (עוד שיחות על דת האיסלאם) للمستشرقة "حافا لاتسروس يافيه" (חוה לצרוס־יפה) على مرجع عربي واحد هو كتاب (المنقذ من الضلال) للغزالي، ولم تعتمد على النسخة العربية منه، إنما اعتمدت على نسخة مترجمة للعبرية، من ترجمة المؤلفة ذاتها، وتقتصر قائمة المصادر والمراجع لكتاب "مصادر يهودية في القرآن" (מקורות יהודיים בקוראן) للمستشرق "أندريه شالوم زاوي" (א. שלום זאוי) على مرجع عربي واحد هو كتاب "تفسير الجلالين"، فضلا عن "مقدمة ابن خلدون"، التي لم يعتمد فيها المؤلف على النسخة العربية، وإنما اعتمد على نسخة مترجمة للعبرية.

٢ على سبيل المثال: يفتقر كتاب "מחמד" (محمد) للمستشرق "شمعون بيرنفيلد" (שמעון בירנפילד) إلى وجود هوامش كافية لتوثيق ما به من معلومات وتحقيق ما به من روايات، فلا نجد فيه سوى (٤٣) هامشا، في حين يصل عدد صفحات هذا الكتاب إلى (١٥٢) صفحة، فضلا عن أن معظم هذه الهوامش هي مجرد تعليقات من المؤلف، ويندر وجود هوامش لتوثيق المعلومات وتحقيق الروايات.

(هـ) الافتئات على الروايات الإسلامية بفرضيات متوهمة:

ينبغي على أي باحث استقصاء جميع الروايات والأراء المتعلقة بالموضوع أو بالنقطة البحثية التي يدرسها قبل أن يدلو بدلوه ويتورط في ذكر رأي يصطدم بشكل واضح مع روايات أخرى مشهورة ومتواترة في هذا الشأن، لكننا نجد بعض المستشرقين يفتئتون على الروايات الإسلامية بذكر آراء وفرضيات متوهمة تبتعد كثيرا عما هو معروف ومتواتر من الروايات.

ولا يعني ذلك إلا أحد أمرين: إما الجهل بهذه الروايات، وإما تجاهلها. وفي كلتا الحالتين يقع اللوم على هذا المستشرق.

* * *

(و) التعميمات:

على الباحث الذي ينشد الموضوعية في دراسته العلمية أن يبتعد عن التعميمات قدر الإمكان. وقد تورط بعض المستشرقين في إطلاق أحكام جائرة في مجال الدراسات الإسلامية بسبب آفة تعميم النتائج.

* * *

(ز) استعمال الألفاظ التأكيدية أوالاحتمالية بطريقة غير موضوعية:

يستخدم بعض المستشرقين في دراساتهم عددا من الألفاظ والتعبيرات التأكيدية والترجيحية بصورة تتنافى مع الموضوعية العلمية.

فقد يؤكد أحد المستشرقين صحة فكرة ما، رغم عدم قيام الأدلة على صحتها، وقد يطرح رأيا غير مسبوق مُصَدِّرًا إياه بعبارة تفيد احتماله، دون سند يؤيد هذا الاحتمال أو يدعمه.

وبناء على ما تقدم، فإن الدراسات الاستشراقية التي يقع أصحابها في بعض هذه الأخطاء المنهجية أو يلجأ أصحابها إلى بعض هذه الآليات التطبيقية الفاسدة، تصبح نتائجها غير ذات قيمة علمية كبيرة في التعويل عليها والوثوق بها.